الجنوسة في فهم الشباب اللبناني: ثبات في الأحكام وتبدل في المواقف

مأمون طربيه(*)

أستاذ مساعد في الصحافة.

مقدمة

ما تؤكده الدراسات النفسية أن الشباب يمرّون بفترة مأزمية قوامها الرغبة في تشكيل هوية ذاتية قائمة على قاعدة الانفصال والفردانية، تترافق مع مراحل تطورهم البيولوجي ونموّهم الاجتماعي والنفسي، ومثل هذه الرغبة يشوبها كثير من الغموض وصعوبات تكيّف وتقلبات آراء تتجلّى في أكثر من مجال، منها: التعليم والخيار المهني؛ الخوف من المستقبل؛ تكوين المعارف والصداقات؛ كيفية التعامل مع الإحباط العاطفي؛ انهيار القيم وانقلاب المعايير؛ ومشكلة **العلاقة مع الجنس الآخر**، وغيرها من الأزمات التي يعتبرها أريكسون أزمة جيل وأزمة أيديولوجيا في المجتمع، باعتبار أن هناك تفاعلاً بين الهوية والأيديولوجيا (يعقوب ودمعة، ١٩٩٢). وحتّى لا يكون البحث شمولياً للمآزم التي تتعلق بالشباب، توقفنا عند أكثرها جدلاً في مختلف الثقافات، ألا وهي **العلاقة مع الجنس الآخر**، فهي اليوم، وربما في كلّ عصر، تبدو الهاجس الحاضر على الدوام في أذهان الشباب والفتيات على حدّ سواء، ولأنه يشغل حيّزاً من الاهتمام والتفكير ارتأينا أن نتبيّن مقتضيات هذا الهاجس في إشكاليات، منها:

- ما هي المعايير التي تقوم عليها علاقة الشباب بالفتيات اليوم؟
- ما هي التوجّهات القيمية التي تحكم نظرة كلّ منهما إلى الآخر؟
- هل هناك تحول في النظرة على مستوى التصوّر والتصرّف؟

في سبيل الإجابة، قرّرتُ ومجموعة من طلاب الجامعة اللبنانية خلال ربيع ٢٠٠٨، استقصاء أكبر عدد ممكن من آراء الشباب، فوجدنا من المناسب اعتماد أسلوب الاستقصاء الإحصائي عبر الاستمارة المقنّنة، وهو أسلوب يساعد ـ إلى حدّ كبير ـ على جمع معلومات وتفصيلات واقعية، وقد عبّر عنها الشباب من خلال أسئلة الاستمارة المفتوحة، بحيث كان

(*) البريد الالكتروني: tarabeym@hotmail.com.

بالإمكان التعرّف إلى أفكارهم وآرائهم ومواقفهم واتجاهاتهم الحقيقية، ورسم معالم الأوضاع التي يمثلونها. ولأنه يصعب دراستهم بأعدادهم الكثيرة، تمّ اختيار جزء منهم، فكانت عيّنة ممثلة لبعض المناطق اللبنانية، تشمل شباباً ينتمون إلى مختلف المذاهب الدينية، ويتحدّرون من بيئات حضرية وريفية متنوّعة، ويتألفون من أعمار شبابية متفاوتة.

كذلك روعي خلال الاستطلاع التركيز على استكشاف نمط العلاقة السائدة بين الجنسين من خلال الوقوف على آراء الشباب، سواء على صعيد الموقف المبني أو على صعيد السلوك اليومي المعيش. وثمة فارق منهجي بين هذين البعدين: الموقف والسلوك، فالموقف هو عبارة عن نظرة تقييمية للأحداث والأشياء والظواهر والعلاقات تشير إلى حكم معيّن (تصور ذهني) هو أقرب ما يكون إلى الرأي أو الاتجاه، وقد ترسّخ بفعل تراكم ثقافة وتربية خاصة بحيث ترك آثاره في طريقة التفكير والتصرّف. من هنا، يعتبر الموقف هو المحرك الرئيسي للسلوك (حطب ومكي، ١٩٨١). وبذاك يصبح السلوك تجسيداً للموقف أو التصوّر الذهني الذي يظهر على مستوى الفعل، ولا يقف عند حدود الانطباع المبدئي أو العام. نورد في ما يلي مثالاً ورد في الاستمارة:

- هل تقبل الارتباط بـ:

ـ (للفتيات) شاب له علاقات سابقة مع بنات؟: نعم لا

ـ (للشباب) فتاة معروف عنها أن لها علاقات سابقة؟: نعم لا

أو

- ما هو موقفك الشخصي من فكرة أن تبادر البنت إلى طلب يد الشاب في مجتمعنا، هل تؤيد/تؤيدين ذلك؟

نعم (لماذا؟)...

لا (لماذا؟)....

في الموقف المتبنّى كان من المتوقّع أن يجيب أكثرية المستجوبين بـ «لا»، نظراً إلى البعد الثقافي السائد في مجتمعنا الشرقي، الرافض لفكرة الارتباط بفتاة تشوبها شائبة، أو كأن يكون الأمر مخالفاً للعادات والتقاليد، كما في السؤال التالي. ولكن كي لا نبقى على مستوى التوقّعات بالإجابات الممكنة، أحببنا أن نستشعر سلوك الشاب للموقف المتبنّى على صعيد الفعل، فكان إدراجنا لسلوك آخر مفاده:

- (للشباب) ما هي ردّة فعلك إذا تقدّمت إحداهن إليك وطلبتك للزواج؟.....
- (للشباب) هل تقبل الزواج بفتاة اعتدي عليها جنسياً؟ نعم لا
- (للفتيات) هل تتسامحين مع خطأ قيام شريك حياتك بعلاقة ما مع فتاة أخرى؟ نعم لا

وفق هذا المنظور في صياغة الاستمارة بين المواقف والسلوك، يتكشّف لنا مستوى الظروف التقليدية المحيطة بالمستجوب، وحدود التصوّرات المفترضة أو المطلوبة أو الممكنة لتوجّهات جديدة في العلاقة، عبر تقييم الشاب أو الشابة (المستجوب) للخلفيات الموقفية المتبناة لديهم، وتحديد السلوك الفعلي للشباب في وسطنا الاجتماعي... كيف يفكر؟ وإلى ما يطمح؟ وكيف يجسّد ما يتصوره، سواء كان ذلك عبر ردّات فعل (أجوبة الأسئلة المغلقة)، أو سواء كان على مستوى السلوك المتخذ من خلال الآراء الحرّة (الأسئلة المفتوحة) في النظرة إلى الآخر، وإلى ما يرغب في أن يكون عليه.

١ ـ الإطار النظري

لو سألنا الشباب: كيف ينظرون إلى البنات؟ ثمّ عاودنا الكرّة، وسألنا رأي البنات في الشباب، لوجدنا ثمة أفكاراً منمّطة تحكم تقييم كلّ منهما للآخر، على أنَّ تفسير هذه الأفكار يختلف باختلاف المجتمعات، فما يقوله شباب مجتمع شرقي (محافظ) يختلف عمّا يقوله شباب مجتمع آخر امتاز بالمدنيّة والانفتاح الاجتماعي والاقتصادي، حتّى إنه ضمن المجتمع الواحد قد نلحظ تبايناً بين الجنسين، يتفاوت بتفاوت درجة وعي أبناء هذا المجتمع، ودرجة تمثّله للأفكار المستحدثة، أو مدى تمسّك فئة دون أخرى بالعادات والتقاليد. فلو أخذنا المجتمع اللبناني مثلاً، نجد مظاهر التقليد والمحافظة إلى جانب مظاهر الحياة الغربية، وكثيراً ما يتأرجح بنُوه بين هذه وتلك. ففي حين يطمح الشاب إلى أن يتمثل بالحياة الغربية وثقافاتها وأفكارها، يتواجه مع جماعته التي تتمسك بالعادات والتقاليد، كما هو الحال في مسألة الزواج المدني مثلاً، فمنهم من يؤيده من حيث المبدأ باعتباره خياراً حراً لمن يريد أن يرتبط، ولكنه في قرارة نفسه، أو عند مواجهته الواقع الإثني الذي يعايشه، تجده يتراجع عن تأييده الفكرة، ويرفض أن يطبّقه لأسباب تقليدية محضة[١].

● هل يعني فارق الجنس بالضرورة فارق رأي؟

ماذا يعني أن يكون الإنسان رجلاً، وماذا يعني أن يكون امرأة؟ قد نعتقد للوهلة الأولى أن هذا الأمر يرتبط بالخصائص البيولوجية ـ الجسدية التي ولدنا بها، غير أن مفهوم الذكورة أو الأنوثة يأخذ بعداً واهتماماً بحثياً أدق عندما يتعلق الأمر بالفوارق القائمة على الخصائص الفكرية والعقلية، وحتّى الاجتماعية. فبعض الناس، سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً، يعتقدون أنّهم ولدوا بالجسم الخطأ من الوجهة الاجتماعية، ولو كانوا من الجنس الآخر لتغيّرت نظرة الناس إزاءهم. فهم، بحسب رأيهم، يحملون وزر نظرة المجتمع إلى «هو»... ماذا يعني؟، وإلى «هي»... ماذا تعني؟ ذلك أن تصوّرات الهوية الجنوسية، على الرغم من أنّها تشكّل جانباً أساسياً من شخصياتنا، إلا أنّها أضحت تسهم في كثير من القرارات والخيارات في ما يتعلق بتفاعلنا الاجتماعي اليومي، حيث «إننا ـ من الوجهة

(١) «الشباب والسياسة والطائفية،» استطلاع للرأي، أجرته المؤسسة الدولية لمعلومات، بيروت (١٩٩٧).

الاجتماعية ـ ننتج ونعيد إنتاج الجنوسة من خلال الآلاف من الأفعال والممارسات التي نزاولها كلّ يوم» (Giddens, 1993).

وتختلف المقاربات التي ينتهجها الدارسون في تفسيرهم للأدوار الاجتماعية القائمة على أساس الهويات الجنوسية. يكاد يُختصر محور الجدال في سؤال واحد مفاده: ما قيمة المؤثرات الاجتماعية الحاصلة بناء على فوارق الجنوسة وما هو حجمها؟ ذلك أن البنية الاجتماعية ما زالت تقف عند حدّ الهوية الجنوسية، على رغم التغييرات السياسية والاقتصادية في النظرة إلى كليهما بداعي المساواة واحترام الحقوق. فعلى سبيل المثال، أظهرت بعض الدراسات التي أجريت حول تفاعل الوالدين مع أطفالهما أن هناك اختلافات مميّزة في أسلوب التعامل مع كلّ من الأولاد والبنات، حتّى في الحالات التي يعتقد فيها الأبوان أنّهما يعاملان الذكور والبنات بصورة مماثلة، ويتكرّس هذا «التميّز» بشكل أوضح عندما نقدم للمجتمع أجيالاً تربّت وترعرعت على حكايات وبرامج تلفزة يلعب فيها الذكور أدوار المغامرة وأنشطة القوة والنفوذ، بينما يجري تصوير البنات باعتبارهن مخلوقات سلبية وساكنة لأدوار محض أسرية (إنجاب، رعاية، تربية، تدبير منزلي).

على ذلك، توزّعت تفسيرات علماء الاجتماع للاختلافات القائمة بين الجنسين وأوجه عدم المساواة في ثلاثة اتجاهات: يمثل الاتجاه **الأوّل** اعتبار الخصائص البيولوجية أساساً لاختلاف السلوك بين الرجال والنساء، وهناك ـ كاتّجاه **ثان** ـ من يضفي أهمية مركزية على عملية التنشئة وتعلّم الأدوار الاجتماعية، وهناك من جهة **ثالثة** من يعتقد أنّه لا الجنوسة ولا الجنس يقومان على أسس بيولوجية، بل هما نتيجة تصورات اجتماعية... وبناء على هذا الاتجاه، أصبح يُميّز بين مصطلحي «الجنس» و«الجنوسة»، فالأوّل يشير إلى الفروق الفيزيولوجية بين الذكور والإناث، أما «الجنوسة» فتعني الأفكار والتصوّرات الاجتماعية لمعنى الرجولة والأنوثة (Giddens, 1993)، وهنا بيت القصيد في عملنا البحثي.

● الدور الجنوسي

اصطحب والد ابنه المريض إلى إحدى عيادات الأطفال في منتصف نهار يوم عمل، وبعدما تقدّم من سكرتيرة الطبيب لتسجيل حضوره جلس ينتظر دوره. إذاك همست السكريترة في سرها: «يا له من أب رائع»، ولكن هل كانت ستقول ذلك لو جاء الطفل برفقة والدته؟ بالطبع **لا**، لأن الدور الجنوسي للذكور والإناث لا يتحدّد فقط في طريقة عملنا (مهن للرجال، وأخرى للنساء) أو تصرّفنا (هذا لا يليق بالإناث، وذاك لا يليق بالذكور)، وإنما يتحدّد من خلال توقّعات الآخرين وتفاعلنا معهم. فكثيرون من الناس ما زالوا يتمسّكون بالتوقّعات المفترضة لكلا الجنسين، فهم لا يتصوّرون مثلاً أن يكون كابتن طائرة سفر «امرأة» أو أن يتأخر «رجل» عن عمله صباحاً، لأنّه كان يهتم بحوائج ابنه الصغير. وعلى الرغم من أنّ المرأة أصبحت «مساوية» للرجل في كثير من النشاطات الاجتماعية والاقتصادية، إلا أن الدور الجنوسي ما زال حاضراً بقوة في أذهان الناس ومعظم المجتمعات، حتّى لدى الثقافات الغربية التي سبقت المجتمعات العربية إلى تكريس المساواة

عبر مفهوم«الجندرة» (Schaefer, 2008)، حيث هناك سياق واضح محدّد لِكُلّ من الأنوثة،وما يستتبع ذلك من مهام، وسياق آخر للرجولة وما يتطلب هذا المصطلح من قيم كي يبقى الرجل رجلاً. وليس من الصعب أن نلاحظ ذلك، فالأمثلة الواقعية في حياتنا اليومية العادية كثيرة، حيث النظرة إلى كلا الجنسين ما زالت منمّطة وفق معايير ثابتة، من ذلك مثلاً:

ـ يثير تدخين سيدة للسيغار الكوبي في مكان ما الاستغراب نفسه، مثل حمل الرجل «محفظة نسائية» في أثناء التسوّق.

ـ أبطال الحكايات الشعبية ونجوم الإثارة في أفلام التلفزة محصورة بالرجال، ومسائل الإغواء بالنساء.

ـ من الغرابة جداً أن تبصق امرأة في الطريق، أو تتكلّم كثيراً على السيارات، أو تفتح الباب لرجل يرافقها، يوازيه غرابة قيام رجل بطلاء أظافره، أو وضع ماكياج، أو إزالة شعر جسمه، أو البكاء أمام حشد من الناس، كما تفعل النساء.

هذا يعني أنّه نادراً ما تتغيّر المواقف والسلوك والنظرة إلى طبيعة الجنسين، ليس البيولوجية فحسب، وإنّما الاجتماعية أيضاً. وقلّما يحدث التغيير حول الدور الجنوسي لِكُلّ من الرجل والمرأة، وهذا ما دفع الرجال المشجّعين لنضالات المرأة في التحرّر إلى إعادة النظر في آرائهم بانتقاد التحرّك النسوي المفتوح على احتمالات مضاهاة النساء لهم بعدما بدأت تظهر مساوئه الأسرية والنفسية والاجتماعية. إزاء ذلك، أخذت التساؤلات تطرح: هل تعي المرأة صحّة ما تقوم به، وأنّه لا عجز في الفطرة البيولوجية للدور؟ وهل يجب أن تتابعه النساء حتّى النهاية، أم تتراجع أمام حقيقة كيانها كامرأة، حيث تتكامل في مواقع مخصوصة بها دون غيرها؟ هذا ما يعيدنا إلى تحديد الدور الجنوسي على أنّه التوقّعات الاجتماعية المفترضة لِكُلّ من المرأة والرجل على حدة. والمشكلة ليست في أن يقوم أحدهما بمهام الآخر، بل تكمن في النظرة الاجتماعية «المعيبة» التي تلاحق الرجل فيما لو «تأنث بدوره»، والمرأة فيما لو «استرجلت»، ليس في دورها وحسب، وإنّما في حديثها وشكلها كذلك.

٢ ـ الإطار التطبيقي

عبر استطلاع ميداني موسّع، قدمت المعطيات المستقاة إجابات مهمة عن التساؤلات المطروحة، وانسجاماً مع التبويب المعتمد في الاستمارة سيتم عرض بعض هذه النتائج.

أوّلاً: أبعاد العلاقة بين الشباب والبنات

كيف يقيّم الشباب البنات، وكيف يقيّم البنات الشباب؟ بكلمة مختصرة، كيف ينظرون إلى بعضهم البعض؟ تعدّدت الإجابات وتنوّعت في أكثر من صفة، حتّى وصل بعضها إلى وصف الآخر بتعابير سلبية صارخة، مثل وصف البنات للشباب بأنهم «هبل» (تعبير عامي لبناني يعني الحماقة الفارطة)، أو وصف الشباب للبنات بأنهن مجنونات،

مائعات، فاسدات، وغيرها من الأوصاف. وقد حاولنا إحصاء هذه الصفات في المعطيات التالية:

● **توصيف الشباب للبنات**: متهوّرات (٢٤ بالمئة)، متحرّرات (٢٠ بالمئة)، ضائعات (١٢ بالمئة)، جميلات (٨ بالمئة)، متشاوفات (٦ بالمئة)، وصفات أخرى، مثل: قهّارات، غدّارات، كاذبات، فاشلات...

● **توصيف البنات للشباب**: متهوّرون (٣٨ بالمئة)، ضائعون (٢٠ بالمئة)، واعون (١٠ بالمئة)، غير جديين (٦ بالمئة)، وصفات أخرى، منها: ماديون، عصبيون، محبطون، أنانيون، ممتازون، طموحون...

من توصيف كلا الجنسين لبعضهم البعض نلاحظ أن إجابات البنات كانت أقلّ حدّة وأكثر مجاملة وتهذيباً من الشباب، فأكثرهن وصف الشباب بصفات طيبة، مثل: ممتازون، طموحون، منفتحون، رائعون، بينما، في المقابل، نجد قلة قليلة من الشباب وصفت البنات بصفات حسنة. واللافت للنظر أن توصيف البنات كان يطال الانطباع والتصرّف والسلوك والتفكير، في حين جاء توصيف الشباب للبنات مقتصراً على الجسد والجمال والغرور والموضة، وما إلى ذلك من توصيفات حول الشكل. وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على أنّه نتاج بنية عائلية ــ تقليدية قوامها توزّع هرمي يكون فيه تقسيم العمل على أساس العمر والجنس، لينسحب هذا التراتب الهرمي في مفاهيمه على علاقة الذكور بالإناث، حيث يحتل فيها الذكور المكانة العليا، والنساء مكانة دونية في أسفل الهرم الاجتماعي. وتنعكس صورة هذا الواقع التقليدي في المواقف والسلوك، فالذكور أولى بالسلطة والمسؤولية والإطاعة والاحترام وإصدار الأوامر والنصائح والإرشادات والتهديدات، بينما النساء يجب أن يهتممن بالأمومة والأمور الزوجية والمهارة في الشؤون المنزلية، لأن المجتمع لا يُقدّر الأنثى إلا بمدى نجاحها في هذه الأدوار بجدارة. وانسجاماً مع هذا الإطار التقليدي للتنشئة الاجتماعية، يشبّ ذكور المجتمع العربي ــ الشرقي على قاعدة: «الفوقية على النساء»، تتمثل مبادئها في أن تكون المرأة مطيعة، ومخلصة، وأمينة، تحترم أقرباءها، وتعيش راضية دونما تمرّد على أي حال، وأي سياق تقوم به خارج الأدوار المنوطة بها هو من قبيل الخروج عن المألوف، وتبدو فيه الأنثى مستهجنة. لهذا لاحظنا أن توصيف الشباب بدا سلبياً، لأنّه يرى في الفتاة ما هو مغاير لبنيته التقليدية، فهي في نظره أصل الغواية والفتنة والتعاسة والشرّ، ولا يمكن أن يعبّر عن ذلك إلا لأن مجتمعهم صوّر لهم ذلك وفق مفاهيم تربوية تنمّطت لديهم، وأصبحت بمنزلة أحكام صادرة بحق «الجنس الآخر كأنثى»، تبرز بين حين وآخر على مستوى علاقتهم بهن.

ووفق هذا المنظور، هل من علاقة صداقة بين الشباب والفتاة؟ وماذا تعني هذه الصحبة؟ كيف ينظرون إليها، وما رأي البنات، في المقابل، في مستوى علاقتهن بالشباب؟ كيف يقفن عند مفهوم الصحبة، وخاصة أن بعض الدراسات أشارت إلى أن البنات لا يريْن في العلاقة مع الشباب نوعاً من الحرية، بل وسيلة إلى هدف تقليدي هو الزواج،

فهن أصبحن يميّزن بين فئتين من العلاقات مع الشباب: الصاحب والصديق (التركي، ١٩٩٥). فماذا تعني العلاقة بين الطرفين؟ نطرح هذه التساؤلات، لأنّنا ننتمي إلى مجتمع تقليدي يعتبر الارتباط بالجنس الآخر دون ارتباط رسمي (بزواج أو قربى)، أمراً مشكوكاً فيه، لجهة السمعة، والعيب، والقيل والقال عن واقع هذه العلاقة. فأين الشباب اللبناني، كنموذج عن الشباب العربي، في اتجاهاتهم نحو الفتيات؟ وماذا تكنّ الفتيات بدورهن تجاه الشباب في ظلّ التغييرات الاجتماعية التي يعيشها؟ هل ما زال تقليدياً في تفكيره ومحافظاً في سلوكه، أم أنّه منفتح، ويعتبر علاقة الصحبة مع أي إنسان أمراً بديهياً من العلاقات الاجتماعية الموزونة؟ حول هذا قُدّمت مجموعة من الأسئلة نبرزها في المعطيات التالية:

- هل تؤيد علاقة الصداقة بين الشاب والفتاة؟ أ ـ نعم أؤيد... ب ـ لا أؤيد، لماذا؟...
- (للفتيات) هل يمانع أهلك صداقتك للشباب والخروج معهم؟...
- إذا اكتشف أهلك علاقة صحبة أو صداقة حميمية تربطك بشخص من الجنس الآخر، هل يسبب لك ذلك:

أ ـ حرجاً، ب ـ خلافاً، ج ـ مشكلة، د ـ تفهماً، هـ ـ لا مشكلة، و ـ غير ذلك؟

ويتبيّن أن أكثرية المستجوبين من كلا الجنسين مع الصداقة، فالذكور (٨٤ بالمئة)، والإناث (٨٢ بالمئة) على حدّ سواء، هم معها، في مقابل ١٤ بالمئة من الذكور و١٨ بالمئة من الإناث، قالوا إنهم لا يؤيّدونها. ولعل استحواذ مؤشر «نعم» على نسبة عالية يعود إلى اعتبار الإنسان للصداقة، إذ لا يمكن له أن يعيش بمفرده، بل لا بُدَّ من أقران، فالصداقة تقدّم خيارات سارة في الحياة. لذا هي قدس الأقداس، كما يصفونها. وحول ما إذا كان الأهل يمانعون في صداقة البنت للشاب، وهل بالإمكان استضافته في المنزل كصديق أو زميل أو حبيب، عن ذلك أجاب ٣٤ بالمئة من الفتيات بأن ذويهن يمنعوهن من مصادقة «شاب»، بينما أشار ما يقدر بثلثي العيّنة (٦٤ بالمئة) إلى أن لا مانع في ذلك، ولكن ماذا يحدث إذا عرف الأهل أن ابنهم أو ابنتهم على علاقة مع أحدهم/إحداهن من الجنس الآخر؟ هل يتسبّب ذلك بأي مشكلة؟ وما طبيعة هذه المشكلة؟: حرج، خلاف، أم يتفهمون الأمر؟ ويعتبر حوالى نصف العيّنة (٤٩ بالمئة) من كلا الجنسين أنّه يحدث أحياناً سوء تفاهم بين الأهل، مقابل ما نسبته ٤٦ بالمئة أجابوا بـ: «أبداً»، ولكن من بيان النسب تبيّن اختلاف الشباب عن البنات لناحية النسبة الأعلى، فالشباب لا يحبّذون الأمر (٢٧ بالمئة) على عكس الفتيات (٢٩ بالمئة منهن) اللواتي قلن: أحياناً، وهذا معطى معقول في مجتمع ذكوري، حيث يسمح فيه للذكور بالقيام بأمور محظورة أحياناً على الفتيات، حتّى في مجال التعارف ومصادقة الآخرين. فالأهل دائماً أدرى بمصلحة أبنائهم، وخوفهم الدائم من مصاحبة رفاق سوء يبقى حاضراً، كي لا ينحرف أبناؤهم. لهذا يشتدّ التصادم عندما يقوم شاب بمصادقة إحداهن لا تعجب الأهل، فكيف الحال إذا تعلّق الأمر بمصاحبة بنت لشاب؟

ثانياً: الآراء الخاصة بمفهوم الزواج

عندما تُسأل مجموعة من الأفراد المتزوّجين عن الأسباب الذي دفعتهم إلى الزواج، يجيب كلّ واحد منهم بأن زواجه قد تمّ بناءً على مواقف شعورية متعدّدة، منها: تبادل الحب مع شخص آخر، تحقيق الاستقرار النفسي والعاطفي، الاستجابة لرغبة الوالدين، الهروب من الوحدة، الحصول على الرفقة والإشباع الجنسي، الشهرة، الوصول إلى مكانة اجتماعية، وأسباب أخرى. ولكن، هل هذا هو الرأي ذاته بالنسبة إلى غير المتزوّجين، لأن الزواج يستحوذ على تفكير الشباب والشابات على الدوام؟ وباعتباره هو إحدى العلاقات التي تقوم بين الجنسين، ما هي نظرتهما إليه؟ كيف يقيّمانه؟ هل ما زال تقليدياً في مفهومه، أم تغيّرت صورته مع الظروف الحاضرة؟، وإلى أي مدى ما زلنا نعيش واقع الشباب الهائم في الحبّ، المتحدث عن فتاة أحلامه أو فتى أحلامه؟ وهل هناك شباب وشابات منعزلون/منعزلات عن الجنس الآخر؟ محور هذه التوجّهات ورد في استطلاعنا عبر أسئلة هادفة، أبرزها:

١ ــ كيف تقّيم زواج اليوم برأيك؟

٢ ــ ما هي مواصفات الشريك التي ترغب فيها؟

٣ ــ هل تقبل الارتباط بـ:

(للفتيات) شاب له علاقات سابقة مع بنات؟ نعم لا

(للشباب) فتاة معروف عنها أن لها علاقات سابقة (من واحد لواحد)؟ نعم لا

٤ ــ هل تقبل الزواج بفتاة اعتدي عليها جنسياً؟ نعم لا

٥ ــ هل تتسامحين مع خطأ قيام شريك حياتك بعلاقة ما مع فتاة أخرى؟ نعم لا

٦ ــ هل توافق على زواج من شريك يتنمي إلى طائفة غير طائفتك: نعم (لماذا؟)...، لا، (لماذا؟)...

٧ ــ أي من هذه الأسباب هو العائق الأهم أمام عدم التوافق الزوجي:

٨ ــ (للإناث) ما هو موقفك الشخصي من فكرة أن تبادر البنت إلى طلب يد الشاب في مجتمعنا، هل تؤيد/تؤيدين ذلك؟

أ ــ نعم (لماذا؟)...

ب ــ لا (لماذا؟)...

(للشباب) ما هي ردّة فعلك إذا تقدّمت إحداهن إليك وطلبتك للزواج؟...

حين تسأل مجموعة من الشباب غير المتزوّجين عن رأيهم في الزواج، فإن الآراء قد تتعدّد، حيث يخطّط كلّ فرد لزواج يلائمه ويرضيه، وبين خبرة المتزوّجين في تجربة الزواج ورغبة المقبلين عليه من الشباب، يبدو الزواج بمفهومه العام النمط الاجتماعي الذي يجد

قبولاً واسعاً ومشروعية لإقامة علاقات بين الجنسين. فالتعاون والتشارك وبناء حياة أسرية هي عوامل تجذب الأفراد نحو بعضهم البعض، وبالتالي نحو الزواج. وهذا ما أظهره توصيف الذكور والإناث للزواج في إجاباتهم المتقاربة، ففي الوقت الذي يرى فيه الشباب الزواج على أنه: استقرار، مسؤولية، ارتباط مقدس، حياة سعيدة، التزام، تعاون، بناء أسرة، شراكة، راحة بال، ثمرة حبّ، نجد الفتيات أيضاً ينظرن إلى الزواج على أنّه: حياة ثانية، قوامها المسؤولية والاستقرار والتفاهم والأمان والشراكة والرباط المقدس لعلاقة أبدية. وبالرغم من أن أكثرية الجنسين وصف الزواج بتعريفات إيجابية، إلا أنه برزت تعابير مغايرة عنه، مثل: الزواج نهاية الإنسان، قاتل الطموح، لا شيء... لا معنى له، قفص ذهبي، حدٌّ للحرية... ولمعرفة توجّهات الشباب أكثر نحو العلاقة مع الآخر في الزواج، قُدّم للمستجوبين سؤال مهم عن المواصفات التي يبحث عنها لدى شريك الزواج المستقبلي، على أنَّ يحدّد ذلك من الخيارات المرفقة، فتبيّن بالنتائج ما جاء في الجدول الرقم (١):

الجدول الرقم (١)

توزّع المستجوبين بحسب تحديدهم لمواصفات الشريك (نسب مئوية)

المواصفات	الذكور	الإناث
غنية/غني	٤	صفر
متعلمة/متعلم	٣٤	٤٢
موظفة/موظف	٢	١٠
من عائلة معروفة	٦	٤
ذو/ذات شخصية استقلالية	٢٢	٢٨
لديها جنسية/مغترب	٦	٢
لا مواصفات لديّ	٦	صفر
غير ذلك	١٤	٨
لا جواب	صفر	٢

يلاحظ من الجدول الرقم (١) أن مستوى التعليم هو العامل الأبرز الذي اشترطه كلا الجنسين، لأن أغلبهما جامعي، وما زالت تدور في أذهانهما أهمية أن يكون الآخر متعلماً وذا مستوى علمي، لما تهّيئه «الشهادة» من أبواب عمل في المستقبل، وهذا ما يُشعر الفتيات بالأمان إذا ما عاكستهن الأيام بظروف صعبة. وأن يشترط الشباب المستوى العلمي، فذلك لأسباب عدة، أهمها تقديره لمسألة الوعي والإدراك عند الفتيات في تعاملهن مع المجتمع. وبعد مؤشر التعليم حلّت الشخصية ثانياً، وخاصة من قبل الفتيات، باعتبار أن الفتاة ترفض الشاب ذا الشخصية الضعيفة أو المسحوقة التي لا تحسن تدبير أمرها في المواقف الصعبة. وأن يشترط كلا الطرفين وجود الشخصية، فذلك من باب التمرّد على تربية اجتماعية جامدة ما زالت تسري في أوساطنا، قوامها تنشئة أسرية قائمة على الاتكالية والعجز والتهرّب وعدم المسؤولية. فالآباء الشرقيون ما زالوا يقرّرون الأمور عن أولادهم دون

مناقشة. وإلى جانب الرغبة في أن تقترن الفتيات بصاحب عمل (موظف)، حيث الوظيفة تعني دخلاً دائماً يؤسس لحياة مستقرة، نجد رغبة الشاب في الاقتران بفتاة لديها جنسية أجنبية، حيث يتيح له ذلك سرعة السفر والهجرة، وهي رغبة موجودة في ذهن شباب الريف اللبناني ــ خاصة البقاعي والعكاري ــ لما يقدمه الاغتراب من فرص لحياة أفضل. ولم نقف عند تقرير الصفة المفترضة في «شريك المستقبل»، حيث التقرير اللفظي غالباً ما يكون مغايراً للواقع. لأجل ذلك، وضعنا المستجوبين أمام مواقف أكثر جرأة تنبئ بالرأي الفعلي، في ما لو تمّ، ماذا تكون ردّة فعله؟ ومن هذه الأسئلة:

١ ــ هل تقبل الارتباط بـ:

أ ــ (للفتيات) شاب له علاقات سابقة مع بنات؟ نعم لا

ب ــ (للشباب) فتاة معروف عنها أن لها علاقات سابقة؟ نعم لا

لقد أظهرت المعطيات مفارقة واضحة بين رأي الشباب والبنات في مسألة الاقتران بآخر/بأخرى له/لها علاقات سابقة، فعلى الرغم من أن نصف عيّنة البنات (٥٠ بالمئة) رفضت الارتباط بشكل قاطع، نجد أن نصفهن الآخر تقريباً (٤٦ بالمئة) يقبلن بالارتباط. ويُبرّر ذلك بأنه من غير المعقول أن لا يكون للشاب علاقات مسبقة، ويرين أن كلّ الشباب لهم ماض، فلا يمكن محاسبته عمّا سبق إذا قرر فتح صفحة جديدة مع فتاة أخرى (التي قد تكون أنا). أما بالنسبة إلى الشباب، فالموقف والرأي مختلفان تماماً، فهم يرفضون (٨٦ بالمئة) هذا الأمر البتّة، ويصرّون على تجنّب الزواج من فتيات لديهن علاقات عاطفية سابقة (سواء كانت معهم أو مع غيرهم)، بسبب عدم ثقتهم بها، أو خوفاً من أن تكون تلك العلاقة قد وصلت إلى حدود جنسية مباشرة. وهذا ما يرفضه الرجل الشرقي في قرارة ذاته. ومن الأسئلة في هذا السياق، وُجّه إلى المستجوبين السؤال التالي:

١ ــ هل تقبل الزواج بفتاة اعتدي عليها جنسياً؟ نعم لا

٢ ــ هل تتسامحين مع خطأ قيام شريك حياتك بعلاقة ما مع فتاة أخرى؟ نعم لا

لقد تبيّن إنَّ ٣٨ بالمئة من الشباب يقبلون هذا الأمر، و٥٨ بالمئة يرفضونه. أما بالنسبة إلى الفتيات، فقد تبيّن رفض الأكثرية منهن هذا الأمر، إذ اخترن عدم المسامحة (٧٦ بالمئة) وقلن: «لا»، مقابل ٢٤ بالمئة لا يرين ضيراً في ذلك... هنا، يعتبر رفض الفتاة التسامح بقيام شريكها بعلاقة مع فتاة أخرى أمراً بديهياً، لأنّ أمراً كهذا يُعتبر من باب الخيانة وإهانة مباشرة لها. لذا تعتبر عدم مسامحته أولى، فهن يعتبرن أنّه من الأفضل أن تكون الأمور واضحة منذ البداية، وأي خلل في الميثاق من شأنه أن يهزّ متانة العلاقة. أما أن يرفض الشاب الشرقي الارتباط بفتاة سبق أن تعرّضت لاعتداء جنسي أو فعلته هي بملء إرادتها، فهو أمر محسوم بالرفض، لأنّه ربيب تربية اجتماعية محافظة ما زالت تقول إن شرف البنت في عذريتها، وليس عليه أن يتقرّب من فتاة سمعتها «غير نظيفة».

وعلى الرغم من أن المسألة الجنسية قد أصبحت في الغرب جزءاً من الحريات الشخصية، والارتباط بأيّ فتاة يعتبر أمراً مقبولاً لا حذر فيه، إلا أن المجتمع الشرقي ما زال يشدّد في ثقافته على النظر بحذر إلى العلاقة القائمة بين الجنسين إذا تمّت خارج إطار الزواج أو قبله. فعندما يتقابل اثنان من الجنسين (بعيداً من الأعين أو منفردين)، فغالباً ما يؤشر إلى ذلك بـ «المحظور»، نتيجة المناخ الاجتماعي المتأثر دينياً، الذي يعتبر مثل هذه العلاقات في خانة الحرام أو غير الجائزة. ولأنّنا في مجتمع يوزن الأمور دائماً بمعيار الدين، فقد جاءت نسبة الرفض عالية. لكن اللافت للانتباه هو إجابة نسبة من الشباب عن عدم ممانعتهم الارتباط بفتاة تعرّضت للاغتصاب، وهذا يمكن إرجاعه إلى درجة تحرّر معيّنة لدى الشاب اللبناني، أو هو رأي من تلقّوا وتابعوا دراستهم في جامعات غربية، إذ يرون أن البنت ليست دائماً هي من تصنع الخطايا، بل غالباً ما تكون الخطيئة من حكم المجتمع الجائر، فلِمَ نحاسبها عليه؟

وبما أن العلاقات اللامشروعة خارج إطار الارتباط الرسمي محظورة ومفروضة من قبل الطرفيْن، ويمكن أن تؤشر إلى نسفه في ما لو حدثت، استعرضنا أمام المستجوبين جملة عوائق يمكن أن تحول دون الزواج بهدف معرفة رأيهم: هل الجنس وحده يزعزع العلاقات؟ في سياق ذلك، قدمت جملة خيارات أخرى، هي:

الجدول الرقم (٢)
توزّع المستجوبين، بحسب رأيهم،
للأسباب التي تحول دون التوافق الزواجي (نسب مئوية)

العائق	الذكور	الإناث
فارق العمر	٢٢	١٠
فارق الدين	٣٢	٤٨
فارق البلد	٦	صفر
فارق العرق	صفر	٤
فارق التعليم	٢٤	١٦
فروق أخرى	١٠	١٨
لا جواب	٦	٤

من الملاحظ تقارب واضح بين كلا الجنسين في اختيار عامل الدين بنسبة مرتفعة، باعتباره مؤشراً ممكناً لعدم التوافق في الزواج، وقد أرجع المستجوبون سبب ذلك إلى أن اختلاف الثقافة الدينية والعادات والتقاليد التي تفرضها كلّ ديانة على أتباعها قد ينعكس سلبيّاً على حياة الشريكين. وحول ذلك تُثار التساؤلات التالية: في أي محكمة سيتمّ الزواج؟ وبخصوص تنشئة الأطفال، أيّ عادات اجتماعية تناسبهم أكثر؟... إلخ. ولوحظ ارتفاع هذا المؤشر بشكل لافت عند الفتيات ــ خاصة المسلمات ــ حيث يُحظّر عليهن دينهن الزواج من

غير طائفتهن، إلا إذا اتبع الزوج ملّتهن وأشهر «إسلامه»، وهذا ما لا يحدث. لذا، تفضّل الفتيات عدم الذهاب في علاقة غير مضمونة النهاية تؤدي إلى زواج من هذا النوع إذا كان الطرفان من دينين مختلفين. وهذا ما أكده معظم المستجوبين في سؤالنا التالي: هل توافق على زواج من شريك ينتمي إلى طائفة غير طائفتك؟ ليظهر إن ٦٢ بالمئة من الشباب قالوا: «لا»، مقابل ٣٦ بالمئة قالوا: «نعم» (ممكن)، في حين أشارت نسبة ١٤ بالمئة من الفتيات بـ «نعم»، مقابل ٨٦ بالمئة منهن أجبن بـ «لا». وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على أنَّ الزواج الداخلي بين أبناء المذهب الواحد، أو من المنطقة القريبة، هو الرائج والأكثر تقبلاً من الزواج الخارجي، وأن قليلين هم الذين يجرأون على الزواج المختلط. ولعل سبب ذلك يعود ـ وكما أشار إليه السيوسيولوجي ريتشارد شيفر ـ إلى احترام الشباب والشابات رغبة آبائهم في أن يعيشوا حياة شبيهة بحياة آبائهم، فإن اختار لهم الأهل زوجاً أو زوجة، وهو ما يعرف بـ «الزواج المرتّب» (Arranged Marriage) يقبلون به طوعاً، لأنّه الأكثر استقراراً والأكثر إدامة في المستقبل من الزيجات الأخرى (Schaefer, 2008)، وثمة سبب آخر يؤدّي إلى دفع المقبلين على الأخذ به، وهو أنّهم يكونون ملتزمين دينياً، حيث ـ لاحظ الباحث نفسه ـ أن الأفراد الأكثر تمسّكاً بديانتهم يهمّهم أن يكون الشريك من ملّتهم، نظراً إلى ما تمليه كتبهم وتعاليمهم من تكريس عهد الله بالرباط المقدس ضمن الطائفة الواحدة. وهذا ما لاحظه لدى الأقليات التي هاجرت إلى أمريكا من ثقافات تقليدية متديّنة (الهنود، والآسيويون، والمكسيكيون). وهكذا نفترض أنّه كلّما كان الإنسان أكثر التصاقاً بجماعته الإثنية، فكراً، ومعتقداً، واجتماعاً، خفّ وقلّ النزوع لديه إلى الزواج من خارجها، وكلما ابتعد الشخص عنها لا يجد حرجاً في أن يرتبط بآخرين من خارج ديانته. لهذا نجد أن الزواج المختلط يكثر عند ذوي الاتجاهات الليبرالية والعلمانية.

وكي لا نبقى على مستوى التنظير والرأي المبدئي، قاربنا الآراء المقدمة بطرح واقعي يتمثل بسؤالنا الشباب: ما هي ردّة فعلك إذا تقدّمت إحداهن إليك وطلبتك للزواج، هل تقبل أو تحبّذ الفكرة؟ ليجيب ٣٠ بالمئة بـ «نعم»، مقابل ٢٠ بالمئة بـ «لا»، بينما استغرب الآخرون السؤال، ولم يبدوا رأياً صريحاً، وإنّما أدلوا بتعليقات عابرة، مثل قولهم: تظهر لنا كم هي جريئة، يعني بتخوّف؛ إذا فعلت الفتاة مثل هذا الشيء تفقد احترامها؛ لا يجب أن تفعل كي تبقى على قيمتها؛ في اعتقادي يجب أن «تشوف البنت حالها»، لأن «الحلو» بالبنت كبرياؤها. ثمّ عاودنا وسألنا الفتيات: ما هو موقفك الشخصي من فكرة أن تبادر البنت إلى طلب يد الشاب في مجتمعنا، هل تؤيدين ذلك؟ وقد أشارت نسبة ١٤ بالمئة منهن بأنهن مع الفكرة، بينما كانت ٣٠ بالمئة منهن ضدها، للسبب أن: كلّ له دوره في الحياة، وهذه الأدوار مقدسة بين الاثنين وفق أصول؛ الشاب في مجتمعنا لا يتخلّى عن عقليته الشرقية، فإن تقدّمت إليه واحدة سيظلّ ينظر إلى تصرفها على أنّه سيئ مستغرب وغير مقبول. وفي الوقت الذي عبّرت فيه أخريات عن تشجيعهن للفكرة، انطلاقاً من حقّ الفتاة في التعبير عن مشاعرها، ومن أنها فكرة جيدة في ما لو كنا فعلاً نؤيد التطور الاجتماعي، وأنه مثلما لا يوجد هناك اختلاف بين الشاب والبنت في كثير من المسائل،

كالتعليم وقيادة السيارة والعمل، فلماذا يكون هناك تمييز في هذه المسألة؟ نجد منهن من يرفض الفكرة من حيث المبدأ، باعتبار أنّها تخالف عاداتنا وتقاليدنا، وإن فعلت البنت ذلك فقد يفقدها احترامها أو يقلل من قيمتها أو يحطّ من مستواها، حتّى ذهبت إحداهن بعيداً في توصيف الطرح بالقول: «إن قامت به الفتاة فهو: وقاحة وقلة أدب». يؤكّد تباين الإجابات بين كلا الجنسين ما افترضناه مسبقاً من أن شاب المجتمع اللبناني ما زال يعيش ازدواجية رأي وموقف، فمن جهة يشجع الأفكار المستحدثة، وقد ظهر ذلك صراحة في مسألة تقدّم الفتاة لطلب يد شاب، فهو في نظر البعض من قبيل: الانفتاح، ومن حقّ الفتاة أن تعبّر عن مشاعرها ورغباتها، وإذا كنا ننادي بالمساواة بين الجنسين، فلِمَ نقف عند هذه المسألة ونرفضها؟ ومن جهة أخرى، هناك كثير من الشباب يصعب عليهم المباشرة بعلاقة، ويحبّذون فكرة أن تتقدم إحداهن، و«تختصر عليهم الطريق» (حسبما عبّر أحد المستجوبين الشباب المؤيدين للفكرة). وتُظهر عيّنة في مكان آخر تحفّظها، باعتبار أن التقاليد لا تسمح بذلك: «تصوّر أن يقال إن فلانة تقدّمت لفلان وتزوّجته، يا ضيعان الرجولة»، كما علّق أحدهم.

وفقاً لما تقدّم، نخلص إلى القول إنه أيّاً كان نمط الزواج أو نوعه أو توجّهاته، فإنه ما يزال يعتبر في أوساط كثيرة شأناً عائلياً أكثر منه فردياً، أي ما زالت العائلة ترتبه وفق عاداتها وتقاليدها الموروثة إلى درجة أن كثيراً من الأهل يأنفون ممّن لا يناسبهم في الدين أو الطبقة والنسب والبلد والمستوى التعليمي. وعلى الرغم من تغيّر حاضر الزواج عن ماضيه بسبب ما طرأ من تغيّرات خلال السنوات الأخيرة، إلا أنه ما زالت عملية ترتيب الزواج مرتبطة بعدد من الظواهر الاجتماعية، مثل: الحدّ من حقّ الاختيار الفردي، وتفضيل زواج الأقارب. فقد لوحظ من المتابعات الميدانية أن هناك عوامل أخرى تلعب دورها قبل الحب، ويرجع السبب في ذلك إلى أنَّ كثيراً من الزيجات في الوسط التقليدي المحافظ ما زالت تتمّ بترتيب من ذوي العروسين لمصالح معيّنة (يحدث في بعض الثقافات اتفاق مسبق بين الأهل على تزويج أبنائهم، وهم ما زالوا صغاراً)، أو كأن يتمّ الزواج بالإكراه أو للمصلحة، حيث تنعدم الروابط العاطفية فيه.

وعلى هذا الأساس، يأتي الحب ثانياً بعد مقتضيات الواقع المعيش. ولعل نظرة إلى كثير من علاقات الحبّ نجدها قد انتهت، لأنّها اصطدمت بقيود اجتماعية أوجدها المجتمع قبل «الحبيبيْن»، ومن هذه القيود: الاختلاف الديني (وقد رأينا عيّنة منها في الإجابات)، والتمايز الطبقي، والتباين المناطقي والعلمي، حيث يقدر لهذه العوامل أن تحول دون تكريس العلاقة برباط مقدس. لهذا يرغب شباب اليوم في أن يسير بعلاقات متعدّدة مع فتيات مختلفات دون أن يرتبط ــ فعلياً ــ بعلاقة عاطفية ثابتة، بل إن منهم من يفضّل البقاء على علاقة طويلة الأمد بدلاً من أن يرتبط فوراً ويقوم ببناء أسرة. وهذا يعني أنّ الحب الرومنطيقي لم يعد ضرورياً للزواج، بل إن مقتضيات الواقع، وليست المشاعر والأحلام الوردية، هي التي تفرض الزواج. لهذا السبب نلاحظ انتشار حالات زواج مختلفة، كزواج شاب من سيدة متقدمة عليه في العمر، حيث هي ميسّرة مالياً بخلافه، وارتباط الشباب

العربي بفتيات أجنبيات بهدف الحصول على تأشيرة دخول إلى بلد أجنبي للحصول على جنسية، وزواج الإنترنت حيث البحث عن شريك/شريكة المستقبل في المواقع الإلكترونية متاح كحصولك على خدمة إنتاج، وزواج المكاتب الذي تتولاه جمعيات خيريّة بهدف الحدّ من تكاثر ظاهرة العنوسة. وبالرغم من أهمية غاية هذا الزواج، إلا أن مبرّراته هي أبعد من ذلك، إذ يحصل عندما تكون الروابط الاجتماعية معدومة إلى درجة يصعب على الشريك إيجاد شريكة حياته بسهولة لانشغاله الدائم، أو لعدم وجود من يهتم بأمره في هذا الموضوع، فليجأ إلى مثل هذه المكاتب عبر تقديم «طلب زواج».

ثالثاً: آراء اجتماعية عامة

يواجه الشباب كثيراً من صور الحراك الاجتماعي حتّى يصبح إنسان اجتماعياً، فهو ينتقل من حالة الاعتماد على الغير إلى حالة الاستقلال النسبي، ومن مرحلة التعليم إلى مرحلة سوق العمل، ومن المنزل إلى البيئة الخارجية (بعيداً من المنزل)، وكذلك من العيش في ظلّ أسرة إلى تكوين أسرة خاصة به. إنّه في حركة طموح دائم، قوامها الرغبة في تحقيق الذات، وإثبات القدرة على تحمل المسؤولية. بإزاء صورة الواقع الماثل في عالم الشباب، من حراك وطموح وتطلّع، توجّهنا إلى المستجوبين بأسئلة عامة بغية معرفة آرائهم في ما يتعلق بنظرتهم تجاه مجتمعهم. ومن هذه الأسئلة:

١ ــ ما هي أبرز اهتمامات شباب اليوم برأيك؟...

٢ ــ ما هي أبرز مشاكل الجنس الآخر اليوم برأيك؟...

٣ ــ من المسؤول عن هذه المشاكل؟...

٤ ــ ما هي المشكلة الأهم التي تقلقك أكثر من غيرها؟...

٥ ــ إلى ما تطمح من أهداف في الحياة؟...

٦ ــ كيف تنظر إلى مستقبلك؟...

● تطلع مشوب بالقلق

بالتوقف عند الاهتمامات، ظهر تباين ملحوظ بين الجنسين. ففي الوقت الذي اعتبر فيه الشباب أن أبرز اهتماماتهم منصبة الآن على: نيل الإجازة والحصول على شهادة، والسعي إلى العمل والمال والشهرة ولو بالهجرة لتأمين مستقبله وتكوين أسرة خاصة، أشار الجنس الآخر إلى أن اهتمام الفتيات يدور اليوم حول عالم الموضة والبرستيج الاجتماعي والأناقة والتسلية عبر الإنترنت والسهر والخروج لقضاء أوقات ممتعة. أما في ما يتعلق بالمشكلات التي تؤرق كلاً من الشباب والبنات، فهي متعدّدة لتنوع وجهات النظر، فالشباب يعتبرون مشاكل البنات تتلخص في: الغرور والكبرياء والعناد؛ الانفعال الزائد وقلّة الوعي وعدم فهم الآخر؛ حبّ الظهور والغيرة والأنانية وعدم الثقة بالنفس؛ عدم الصراحة

والاحتيال؛ الغواية وحب المال؛ تقيّدهن بأعراف واهية والخوف من عدم الزواج. أما البنات، فإنهن يجدن مشاكل الشباب في: تفكيرهم الدائم في الجنس؛ اللامبالاة وعدم الجدية وعدم النضوج والاستهتار؛ الإدمان؛ عدم الإخلاص؛ التهور والعنف والتعصب؛ عدم قدرتهم على تأمين حياتهم وتأسيس أسرة. وقد اعتبر كلاهما أن هناك أكثر من طرف مسؤول عن هذه المشكلات، فقد أرجع من نسبتهم ٥٨ بالمئة السبب إلى الأهل، فالدولة (بما تمثل من أجهزة ومؤسسات) تالياً (٤٢ بالمئة)، فالوضع الاقتصادي ـ ثالثاً ـ بحسب رأي نسبة ٣٢ بالمئة من المستجوبين، يليه وسائل الإعلام (٢٢ بالمئة)، فقلة الإيمان (١٦ بالمئة) فالشباب أنفسهم (١٨ بالمئة). هذا فضلاً عن أسباب أخرى، مثل: الفقر، والتمثل بالغرب، والعادات، والصحبة السيئة).

وعن أبرز المشاكل التي يمكن أن يمرّ بها الشباب، عمدنا إلى مقاربة الموضوع بسؤال المستجوب عن المشكلة الأهم التي تقلقه، فكانت إجابات متعدّدة، كالتالي:

ـ **ما يقلق الشباب**: عدم إيجاد عمل بعد التخرّج، عدم تحقيق الطموح الشخصي، عدم استقرار الأوضاع السياسية، تدخّل الأهل، الوصول إلى المكان الخاطئ بعد جهد جهيد، غضب الله، عدم تأمين حياة أسرية كريمة، وغير ذلك.

ـ **ما يقلق الفتيات**: الزواج من شخص غير مناسب، الوقوع في الخطأ، انعدام الصدق وعدم الصراحة، فعل الحرام والفساد، فقد عزيز، الخيانة، عدم القدرة على تأمين مستوى معيشي لائق، الحرب، الوحدة، الفلتان الأمني والأخلاقي، ووضع البلد المضطرب... إلخ.

يلاحظ هنا أن ما يقلق الشباب يتعلق بمسائل مهنية أكثر منها نفسية واجتماعية، وهي التي تبرز بدورها بشكل ملحوظ عند الفتيات، وسبب ذلك يعود إلى دور كلّ من الشباب والفتيات في الحياة. فدور الشاب الدراسة، ثمّ العمل وتأمين وظيفة مرموقة وحياة اجتماعية مستقرة، بينما الفتيات يقلقن من الوحدة وعدم الصدق واضطراب الأوضاع، ذلك أن في استطاعة الشباب عند اضطراب الأوضاع أن يهاجروا أو يتنقلوا من مكان إلى آخر بحثاً عن الأمان والمستقبل العملي، بينما الفتيات لا يستطعن بسهولة المغامرة بالهجرة. وعلى الرغم من هذه المشاكل، كيف يتطلعون إلى مستقبلهم، أبتفاؤل أم بتشاؤم؟ وما هي أهدافهم في الحياة؟ عن ذلك أبرزت المعطيات النتائج التالية:

الجدول الرقم (٣)

توزّع المستجوبين بحسب نظرتهم إلى المستقبل (نسب مئوية)

الجنس	تفاؤل	تشاؤم	ما بين بين	لا جواب
ذكور	٥٤	٢٤	١٦	٦
إناث	٦٨	١٦	١٢	٤

إن النظرة الغالبة من كلا الجنسين هي أقرب إلى التفاؤل منها إلى التشاؤم، فنصف

عيّنة الشباب (٥٤ بالمئة) وثلثا عيّنة الفتيات (٦٨ بالمئة) يتطلع أفرادهما إلى مستقبل زاهر، واعد ومشرق ومزدهر، مما يعني أنّ أهدافهم في الحياة يجب أن يشوبها الأمل والتطلع إلى تحقيق الطموحات، ولكن هل هي فعلاً كذلك أم يشوبها إحباط وضبابية وغموض ويأس من عدم تحقيقها؟. فضلاً عن ذلك أظهرت المعطيات المؤشرات التالية:

ـ **من أهداف الشباب**: الاستقرار العائلي، بناء أسرة، تأمين الشيخوخة، حياة كريمة، النجاح والشهرة، الحصول على وظيفة مرموقة، السعادة، تحقيق الذات، أن يصبح مسؤولاً وجديراً بالحياة.

ـ **من أهداف الفتيات**: العيش بسلام، الزواج السعيد، الإنجاز العلمي، تحقيق الطموح، العمل المشرف، التزام المبادئ وعدم الوقوع في الانحراف، السياحة، السفر، الرفاهية.

يقول جالز فرنش: «في سنّ الثامنة عشرة يفكّر المرء في إصلاح العالم، وفي سنّ الثلاثين يفكّر في إصلاح وطنه، وفي الأربعين يفكّر في إصلاح منطقته، وفي الخمسين يفكّر في إصلاح بلده، أما في الستين فيفكر في إصلاح نفسه». إنّه واقع التطلّع الذي يبدأ مع الشباب، فكلهم يرغبون في تحقيق طموح أكبر من عالمه، فيُكثر من الأماني ويتصور الأمجاد التي يتمناها، والأعمال التي يتوقّعها، والمستقبل المشرق الذي يرغب في بنائه، وهذه مسألة بديهية ترافق تكوّن البعد النفسي لدى الشباب الذي يتمثل في: الرغبة في الحبّ والمغامرة (التوتر الجنسي)، تمثيل البطولة والتماهي بالرموز (الهوية)، التأمل وأحلام اليقظة، توكيد الذات والاستقلالية.

● الشباب و... العيب

من العناصر الجوهرية في جميع الثقافات منظومة الأفكار التي تحدّد ما هو مهم ومرغوب فيه في المجتمع، وهذه الأفكار المجرّدة هي سلّم القيم الذي يتعارف عليه الناس وفق ما يُعرف بالعُرف الاجتماعي الذي يعمل على توجيه تفاعل البشر في تعاملهم، وعلى تشكيل قواعد السلوك التي ينبغي أن يتصرّف بها فرد ما في محيط معيّن. ويحدث أن هذه المعايير تترسّخ مع الوقت في الأذهان، وتتجسّد قيم وعادات وتقاليد في حياة الناس اليومية. وهكذا نجد أنفسنا ـ وحتّى نكون لائقين اجتماعياً ـ نسير وفق المتعارف به، ونغّلب كلّ قيمنا الأخلاقية ضماناً لسلامة حياة الجماعة التي ننتمي إليها، تجنباً لأي فوضى. فهل يعي الشباب هذا الواقع من مراعاة «النظام الأخلاقي العام»؟ وهل الانحراف عنه ما زال يعتبر في نظرهم عيباً؟ أين مفهوم العيب؟ في أيّ مسائل يتجلى بشكل صارخ؟ هل ما زال هذا التقليد الاجتماعي (القيم، والمعايير، والعيب) معمولاً به؟ عن ذلك قدمنا للمستجوبين أسئلة هادفة، منها:

أ ـ هل في رأيك ما زال مفهوم العيب فاعلاً في أوساطنا الاجتماعية: نعم/لا (إذا كان الجواب: لا، لماذا؟)...

ب ــ أي الأمور تعتبرها الأكثر خروجاً عن أعرافنا وتقاليدنا بالنسبة إلى:

ــ الفتيات .....

ــ الشباب .....

إننا نطرح مثل هذه التساؤل لأن الشاب هو طاقة التغيير المثلى، والثائر على كلّ تقليد بال، ولا يأبه غالباً بأعراف يعتبر الخروج عنها عيباً، ولا سيما أن صور الضبط الاجتماعي غير الرسمي، كالعرف والمعيار والخوف من العيب، هو لازمة اجتماعية مهمة لمنع التفسّخ الاجتماعي وظواهره، كالانحراف والإجرام، فهل ما زال يؤخذ بشيء اسمه العيب؟ بالاستدلال البياني بيّنت المعطيات: أن أكثرية المستجوبين (٦٦ بالمئة من الذكور و٦٨ بالمئة من الإناث) رأت فاعلية واضحة لرهبة العيب، مقابل ٣٤ بالمئة من الشباب و٣٠ بالمئة من الفتيات لا يرون تأثيراً لها، أي أنَّ ثلثي العيّنة يقولون باعتبار العيب ووجوده مهمّين في الأوساط الاجتماعية، فهو بحسب التعريفات عنه: «منظومة متكاملة من المفاهيم الاجتماعية المتعلّقة بسلوكيات البيئة التقليدية، ميزة هذه المنظومة أنّها ترتدي قوة القانون، وهي مصدر للتشريع الاجتماعي غير المكتوب» (معتوق، ١٩٩٣). ولعل أبرز أنواع ما نطلق عليه العيب يتعلق بسلوك المرأة الشابة وسلوك الرجل الشاب (وأحياناً الأطفال عندما يقومون بأعمال غير لائقة). لهذا حرصنا على أن نعرف رأي كلا الجنسين عن أكثر المسائل التي تعتبر معيبة في نظر كلّ منهما. لذلك كان على المستجوبين تحديد ما يعتبرونه معيباً، سواء فعلته الفتاة أو فعله الشباب (رأي الشباب بهم وبهن، وكذلك رأي الفتيات بهن وبهم)، فجاءت الآراء متنوّعة في أكثر من سياق، نعرض أبرزها:

ــ اعتبر ٤٨ بالمئة من الشباب أن من أكثر مواطن العيب بالنسبة إلى الفتاة هو عندما تغادر منزلها مع شلّة من الأصحاب لقضاء أيام بعيداً عن الأهل.

ــ اعتبر ٤٤ بالمئة من الفتيات أن من أكثر الأمور المعيبة بحق بنات جنسها أن تعود متأخرة إلى بيتها ليلاً.

ــ ٥٠ بالمئة من الشباب رأوا أن من أكثر الأمور المعيبة بحق أنفسهم هو عندما يتمرّدون على آبائهم، ويتركونهم وهم بحاجة إليهم. وكذلك رأت نسبة ٤٦ بالمئة من الفتيات هذا المؤشر معيباً في نظر الفتيات إذا فعله الشباب.

يلاحظ أن أكثرية المستجوبين ركّزوا على مسألة خروج الفتاة بعيداً، أو عودتها ليلاً، على أنّه أمر غير مستحبّ، وعلى الرغم من التبريرات التي قدّمت حول هذا الخروج (دواعي العمل كممرضة في دوام ليلي، أو نادلة في مطعم، أو إعلامية في محطة تلفزيونية)، إلا أنَّ الخط الأحمر بالنسبة إلى الشباب عن الفتيات هو: «أن تذهب بعيداً من المنزل لقضاء وقت ممتع مع شلّة أصحاب»، ففي رأي بعضهم، نحن لسنا في أوروبا أو أمريكا حيث يكون التساهل في هذه المسألة متاحاً إلى أقصى حدوده. كما أن ترك الشاب أهله، بحسب

رأي الفتيات، دون الاهتمام بهما، يُعتبر مسألة مرفوضة. واللافت في معطيات هذا السؤال توافق رأي في بعض المسائل بين كلا الجنسين، واختلاف رأي في مسائل أخرى، فهما (الشباب والإناث) اختلفا على مسألتي العودة المتأخرة ليلاً، حيث إن أكثرية الفتيات (٤٤ بالمئة) ترفضها دون أيّ ذريعة، وخروج الفتاة بعيداً عن المنزل لا يحبّذه الشباب مطلقاً، إذ يعتبر بالنسبة إلى ٤٨ بالمئة منهم الأكثر عيباً. أما عن التوافق عند كليهما، فكان على مسألة «ترك الآباء» (٥٠ بالمئة و٤٦ بالمئة)، إذ إن هذا العمل مستنكر ليس أخلاقياً وحسب، وإنّما اجتماعياً ودينياً.

كذلك تبيّن من الإجابات مسائل أخرى اعتبرها الجنسان من الأمور المعيبة، كقيام الشباب بأعمال مشبوهة كالاحتيال والنصب (في نظر ٢٠ بالمئة من الفتيات و١٦ بالمئة من الشباب)، كما أن انتماء الفتاة إلى تنظيم حزبي يراه ١٢ بالمئة من الفتيات مستنكراً. ومن المعطيات أيضاً، اعتبر بعض الشباب أن هناك مسائل أخرى معيبة، وهي: مساكنة البنات لشباب دون رابط شرعي، تفّحش الفتيات في اللباس غير المحتشم إلى درجة التعرّي، الميوعة الزائدة عند بنات اليوم، وخاصة الجامعيات، بينما رأت البنات عيب الشباب في ممارسة الجنس دون أيّ اعتبارات أخلاقية أو دينية (وإن لم يمارس الشاب الجنس، فهو يفكّر دائماً في هذا الموضوع، ولا ينظر إلى البنت إلا كجسد ومتعة جنس)، أو أن يغيّر الشاب من أطباعه ويدخل عالم الصرعات، ويصبح «شاذاً»، أو أن يعمد إلى تغيير دينه.

هنا يبدو أن ثمة «ذهنية تقليدية» تضرب عميقاً في داخل المستجوبين، وتطفو إلى العلن عند أي إشارة اختبار لمواقف أو سلوكات يُواجه بها أحدهم، مما يؤشر إلى أننا ما زلنا نعيش في مجتمع شرقي السمات، للعُرف فيه قوة صارخة. فالفتيات في المجتمع الإحصائي تتجّنب الذهاب بعيداً خوفاً من «القيل والقال»، واحتراماً لمكانتها، وكي لا تلوث سمعتها بأقاويل هي بغنى عنها. والشباب كذلك يلازمون آباءهم، لأن رضا الله من رضا الوالديّن، وأي توفيق في حياتهم يتوقف على مدى رضاهما عليهم، ومن يعقّهما لا يسلم من ألسنة الناس بالذمّ والتحقير. وهذا إن دل على شيء، إنّما يدلّ على أنَّ شبابنا ما زال متأثراً كثيراً ببعض القيم الاجتماعية.

خلاصة

عن العلاقة مع الجنس الآخر، يبدو أن إجابات المستجوبين العفوية فضحت الكثير من الأفكار التي تختزن في داخلهم. وما هذه التصريحات سوى مرآة للبنية الذهنية، وتعبير عن ذات مجتمعية تسرّبت إليه، وتشرّبها، وتمازجت مع ذاته الخاصة، حتّى صعب فصله عنها. ما يمكن ملاحظته هو وقوع الشباب في ازدواجية ذات، برزت معالمها في «أحادية النظرة» بناء على أحكام مسبقة، و«ثنائية التصرّف» في مواقفه وسلوكه (مع وضد في الوقت نفسه)، أي إنه في أفكاره يبدو منمّطاً على قديم بال وتعصّب فكري أعمى، وهو في الوقت ذاته يتطلّع نحو العصرنة ومعطياتها المعرفية الراقية... وترانا نتساءل:

ـ هل يعي الشباب اللبناني أن العصرنة والمدنية لا تعنيان فقط الأخذ بما تقدّمه الحداثة من مبتكرات تقنية نستعملها في يومياتنا، وإنّما تعنيان أيضاً تطوّر فكر وسلوك مهذّبين، ووعياً مجتمعياً راقياً، واستيعاب الآخر بسمات اختلافه؟

ـ هل سيجرؤ على تمثّل قيم الحداثة والتحضّر، أم أنّه سيبقى أسير الأحكام المنمّطة والمواقف الماثلة أمامه؟

ـ هل سنبدّل نظرتنا، كشباب ـ إلى المرأة ـ باعتبارها موضوعاً جنسياً، وأن رأسمالها هو جمالها، إلى اعتبارها إنساناً مشاركاً، وأنها لا تقوم فقط بمجرد دور (أم، زوجة، مدبّرة)؟

ـ هل سنعيد النظر، كفتيات، تجاه الشباب، على أنهم ليسوا نسخة طبق الأصل عن أسياد الزمن الساحق، كما أنّهم ليسوا أوعية صبّت فيها «مسموحات» و«ممنوعات»؟

في ظلّ عالم سريع التطور والتغير لا بُدَّ من أن يتغيّر الشباب نحو الإحساس بالمشاركة أكثر في ما يقرّر مصيرهم الاجتماعي، ونحو التمرّد على كلّ ما يهمّش دور كلّ منهم كإنسان مشارك ومعطاء ومسؤول، لأن قيماً جديدة أخذت تنبثق مع عصر العولمة، وأخذت تفرض نفسها في المجتمع العربي، حيث بتنا نرى مزيداً من تحرّر المرأة، وتخلّصها من تبعيتها للرجل مع إقبالها على العلم (ولو بعيداً من الأهل)، وعملها خارج المنزل (ولو اقتضى الأمر السفر لفرصة عمل مغرية)، ومشاركتها الاقتصادية، ودخولها العمل السياسي.

ووفق هذا السياق، بات يظهر للعيان أنه بقدر ما تتعلم الفتاة (كأنثى) وتعمل وتنتج، فهي تسهم في صنع مصيرها، وتصبح مساواتها بالرجل أمراً واقعاً وحقيقياً. وحتّى يتحقق هذا الأمر، فإن على المرأة في بعض أوساطنا الاجتماعية أن تتخلّص من بعض الرواسب البالية، فهي ما تزال «مغتربة» (بالمعنى السيكولوجي) تعاني مشكلات أساسية، ليس أقلها نظرة «الذكورة» التي تنصاع بدورها ـ هذه الأخيرة ـ حكماً، لأنساق اجتماعية هي بمنزلة «التابوهات»، لأن الانصياع ـ في مفهومه ـ ما هو إلا نوع من الاستعداد لتقبّل أمور محدّدة ورفض أخرى. إنّه «محصّلة تجارب سابقة عديدة استخلص منها مسلك أعمق بكثير من العادة؛ مسلك يتجاوب مع الحياة اليومية والعملية بعقلانية الاختيار الشخصي الاجتماعي» (عطية، ١٩٩٢). وهذا ما يتّصف في الجانب الاجتماعي لدى الشباب بمظاهر رئيسيّة في تآلفهم مع الآخرين، حتّى يؤثر ذلك في سلوكهم ونشاطهم وسعيهم الدائم إلى توسيع آفاق حياتهم، ودائرة نشاطهم الاجتماعي، فيدركون حقوقهم وواجباتهم، ويقتربون ـ فكراً وسلوكاً ـ من معايير الناس، تكريساً لدورهم المفترض. وفي المقابل، قد نجد عندهم ـ اجتماعياً ـ حالة من النفور الذي يظهر في صور تمرّد وسخرية من نظم مفروضة من السلطة القائمة. كما يزداد تعصبهم لآرائهم متأثرين في ذلك بأطر مرجعيّة تنشأ من علاقتهم بالوالدين وبأنماط ثقافية ـ تربوية مستمدة من الشعائر الدينية التي يؤمنون بها، وبالطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها، وبالزعامات التي يوالون.

إن تغيّر نظرتنا تجاه بعضنا البعض، نحو استيعاب وفهم أعمق لـ «الجندرة»، لا يحدث إلا إذا حدث تحوّل في البنى الاجتماعية والنظام العام، اللذين ما زالا يعزّزان بدورهما من علاقات السيطرة والاستغلال في مختلف مؤسسات المجتمع، بما فيها العائلة والمدرسة والعمل. فهرمية العائلة جزء من هرمية المجتمع، إذ لا يتمّ تحرير المرأة مثلاً بمعزل عن تحرّر المجتمع نفسه، أي أن هناك علاقة جدلية بين عمليتي التحرّر ووجود المرأة ككائن منتج، يتمتع بمزيد من الانفتاح الفكري، وبأن يكون كلا الجنسين على قدر من الوعي والمسؤولية في الموقف والسلوك. عندها تتغيّر النظرة، وندخل عالم الجندرة بالتوصيف الذي أراده مطلقوه □

المراجع

التركي، ثريا (١٩٩٥). **تغير القيم في العائلة العربية**. بيروت: اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربى آسيا (الإسكوا). (سلسلة دراسات عن المرأة العربية في التنمية)

حطب، زهير وعباس مكي (١٩٨١). **مأزم الشباب العلائقي وأشكال التعاطي معه**. بيروت: معهد الإنماء العربي.

عطية، عاطف (١٩٩٢). **المجتمع الدين والتقاليد: بحث في إشكالية العلاقة بين الثقافة والدين والسياسة**. طرابلس، لبنان: جروس برس.

معتوق، فريدريك. **معجم العلوم الاجتماعية: إنكليزي ـ فرنسي ـ عربي**. مراجعة وإشراف محمد دبس. بيروت: أكاديميا.

يعقوب، غسان وليلى دمعة (١٩٩٠). **سيكولوجيا النمو عند المراهق**. بيروت: دار النهار للنشر.

Giddens, Anthony (1993). *Sociology*. Cambridge, UK: Polity Press.

Schaefer, Richard T. (2008). *Sociology: A Brief Introduction*. 7th ed. Boston, MA; New York: McGraw-Hill.